البعد الاجتماعي في مدونة عبد الحميد بن هدوقة

أ/ شنان قويدر
جامعة المسيلـــة

أولا : تصور طبيعة الموضوع وتقديم المنهج

يعرف المجتمع الجزائري المعاصر كغيره من المجتمعات الإنسانية تفجر العديد من التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية المتسارعة وهو واقع أدى إلـــى طرح سيل هام من التساؤلات نتيجة هذه التحولات وبفعل تأثيراتها و آثارهـــا مـــن قبـــل النخب الثقافية والاجتماعية والسياسية الفاعلة على مسرح الشأن العام بهـــدف التحليـــل أو محاولة الفهم والتفسير والنقد أحيانا وفي الأغلب الأعم يكون الهدف هو التموقع والبحـــث عن مكانة ودور ، أو ربما لتبرير المواقع والمصالح والتوجهـــات والرهانـــات ، أو لعلـــه بهدف التحكم في مجرى الأحداث وتوجيهها.

من هنا تصبح الجزائر في راهنيتها جزائر التحولات على مختلف الصعد ومـــن ثمـــة جزائر التساؤلات المتعددة الأبعاد والمضامين والدلالات ، شانه فـــي ذلـــك شـــان الواقـــع الاجتماعي المعني في تعقد وتشعب مكوناتـــه ومجالاتـــه وأبعـــاده الفكريـــة والسياســـية والحضارية والسوسيو تاريخية المتعانقة . فإذا استحضرنا في لحظتنا خصوصـــية الـــزمن وما يفرضه على مجتمعنا من تحديات ورهانات وتموضعات،وإذا كان مجتمعنا يشهد فـــي عقوده الأخيرة عدد لا يستهان به من التحولات والمخاضات والمشكلات المختلفة الأنمـــاط والمجالات والمستويات ، كما يعرف الكثير من محاولات وتجارب الإصـــلاح والتجديـــد والتطوير ، وإذا كان لهذه التغيرات على مستوى خلفياتها السوسيوتاريخية والثقافية جـــذور تشكل وسياق تطور وراهنيـــة متعـــددة الأبعـــاد والمـــدلولات والمظـــاهر والمســـتتبعات والامتدادات فما هو دور المثقف في رصد هذه اللحظـــات ؟ وهـــل اســـتطاع الإبـــداع أن يصور راهن الواقع الحقيقي ؟ وان صوره ففي أي مستوى من مستويات القيم الرمزية ؟

يجسد الفن الروائي شخوصه وأحداثه عن طريق تسييقها لغة .ولذلك فالســـياق يلعـــب دورا مهما في توظيف اللغة للتعبير عن المجال الفكري للمتخاطبين وقد تبـــرز لنـــا هـــذه البنية الاجتماعية داخل النص الراوئي بصورة أجلى من كون النص يقـــوم علـــى أســـاس

القصة لما يحويه من شخصيات وأحداث وفضاءات وأزمنة تكون لها مرجعيتها في الواقع المباشر أحيانا كثيرة .ورغم البعد التخييلي المفضي على عالم القصة فان نـص الروايـة يظل تجسيدا لأفعال وعلاقات وقيم اجتماعية وتاريخية محددة .يتم تقديم هذا التجسيد مـن خلال بناء له استقلاله الذاتي عن هذه البنية الاجتماعية من جهة وضمنها من خلال فعـل الكتابة من جهة ثانية (1)

تلعب الشخوص الروائية دورا كبيرا في تجسيد وتشخيص الوقـائع الاجتماعيـة كمـا تكون الأحداث والأزمنة أطرا لحركات هذه الرموز . وابن هدوقة سعى من خلال مدونتـه بين 1970الى نهاية 1989رسم صورة فنية جمالية لواقع المجتمـع الجزائـري ضـمن محيط اجتماعي ونفسي عبر تفاعلات داخلية وخارجية فوقف برمـوزه المجتمعيـة إبـان حرب التحرير وإبان الاستقلال وهي رموز تشير إلى واقع الجزائر راهنيـا وتاريخيـا . رغبة منه في اكتمال الصورة بشكل طبيعي للجزائر المعاصرة . وابن هدوقة جعـل مـن هذه الشخوص نصا مفتوحا على عدة تأويلات بحسب مستويات القراءة فقد كان حريصـا على تسجيل ما يحدث في الجزائر ومسيرتها التنموية . ومن هنا فالنص بنيةٍ دلالية تنتجها ذات فردية او اجتماعية ضمن بنية نصية منتجة وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية (2).

والإرث الإبداعي ضخم ومتنوع للغاية ، ويهمنا أن ابن هدوقة أسهم إسهاما كبيرا فـي تطوير مختلف الأجناس الأدبية إلا أن ما جلب له الشهرة بالدرجة الأولى هو رواية "ريـح الجنوب،التي نشرت في 1971م وتركت أثرا أدبيا عميقا ولعل تفسير نجاح هذه الروايـة يكمن في جدة هذا العمل الفني وفي استجاباته لحاجات القارىء الجزائري فـي ظروفـه تلك . باعتبار الرواية تتناول التغيرات الجذرية في حياة الوطن منـذ انتـزاع الاسـتقلال وعزيمة أبنائه على بناء مجتمع جديد خال من الاستغلال ، ففي الفترة الممتدة بـين سـنتي 1966-1969م وقعت تغيرات كبيرة على المستوى السياسي ممثلا فـي ملكيـة الدولـة للمناجم وشركات التامين والكثير من البنوك والصناعة التي كانت قبل هذه القتـرة تحـت رقابة خارجية والى جانب ذلك احتكار الدولـة للتجـارة الخارجيـة ، كمـا تـم تـأميم المحروقات في فيفري 1971م إضافة إلى سن قانون التسيير الاشـتراكي للمؤسسـات واتخذت إجراءات لتحسين وضع الفرد الجزائري،هذا من الناحية السياسـية والاقتصـادية وبعد الاهتمام بالمدينة تحول الاهتمام بالريف من خلال ميثـاق الثـورة الزراعيـة سـنة

1970م الذي هدف إلى منح الأراضي للفلاحين وخلق شبكة من التعاونيات وفي نـوفمبر 1971م صودق على قانون الثورة الزراعية ونتج عنه "القرى الاشتراكية"

إن أحداث هذه التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية أدى إلـى إعـادة تحديـد مواقع القوى ونشأت صرا عات فظهرت رواية "ريـح الجنـوب"سـنة 1971م لـتعكس الصراع الطبقي في الريف الجزائري، ومن خلال هذه الروايـة صـور المؤلـف واقـع الجزائر في صراعاتها ورسم صورا حية للغاية لأطراف الصراع ، تجرى أحداث الرواية في إحدى القرى في منتصف الستينات وأبطالها هم ، مالك شيخ البلدية المجاهد ونقيضـه عابد بلقاضي مالك الأرض الغني والخائن الذي استعمل كل قواه للحفـاظ علـى ثروتـه ومركزه،مخافة مصادرة أملاكه ومن اجل الحفاظ على أملاكـه يحـاول هـذا الإقطـاعي مصاهرته ويزوجه ابنته الطالبة نفيسة التي قدمت من العاصمة لقضاء عطلتها في القريـة وهذه الفتاة المدللة المتعودة على حياة المدينة تجذبها حياة القرية بتقاليدها العتيقة التي تحكم على المرأة بالانزواء ويعجب مالك بنفيسة وهي تذكره بخطيبته زوليخة أختهـا الكبـرى التي استشهدت أثناء الثورة غير انه لا يفشي مكنونات نفسه ولا يؤمن فـي سـلامة نيـة بلقاضي وكان أهم شيء بالنسبة لمالك هو خير الشعب وانتصار قضية الثورة التي كـرس لها حياته ، ومن هنا فهو يعتقد اعتقادا جازما أن الثورة لن تنتهي ما دام هنـاك رجعيـين ملطخين بدماء الأبرياء قاصدا بذلك بلقاضي وأمثاله .

وتنطبع في ذاكرتنا شخصيات أخرى في الرواية مثل الراعي الشاب رابـح اليـائس في حبه لنفيسة وصاحب المقهى قويدر والمعلم الطاهر وقد نجح الراوي بصفة خاصة فـي رسم ملامح الصورة الشعبية العميقة للعجوز رحمة الماهرة في الخزف وهي أيضا ذاكـرة حافظة للتقاليد القروية تحلم بصنع قلة تجسد كل جمال العالم، كما صور بصـدق الناحيـة النفسية للفلاحين البسطاء الذين لزموا موقفا حذرا من الثورة الزراعية المقبلـة مخافـة أن تحرمهم من أهم ثروة يملكونها هي الأرض كما صور صورا ساخرة لأدعياء العلم من شيوخ ودراويش يعيشون متطفلين على جهل المجتمع البسيط .

ومن هنا فالرواية كانت استجابة آنية لأدب واقعي مكافح وعلى هذا الأساس كان مـن حق نفيسة رمز الجزائر أن تتطلع إلى تنمية داخلية وخارجية وعليها أن تتغير من ريـف المدينة وهذا حل لها ،فالمدينة محكومة بعلاقات اجتماعية مغايرة عادلة ومطاوعـة تحقـق لها وجودا مختلفا ونوعيا وقد صورت نفيسة في الرواية رهينة وضع اجتمـاعي متخلـف

لأنها لم تدرك العلاقات الاجتماعية إدراكا تاما وجيدا يعتمد على التفكيك الواعي للأسس والعلاقات، بمعنى لتتغير الجزائر عليها ببناء وعي لدى أفرادها بشكل يتناسب وما تطمح إليه .

بعد رواية ريح الجنوب نشر ابن هدوقة رواية "نهاية الأمس"1975م وتجري أحداث هذه الرواية في قرية نائية غداة انتهاء حرب التحرير الوطني وبطلها معلم من المدينة يأتي إلى قرية خربتها الحرب من اجل مساعدة الفلاحين على بناء حياة جديدة وخلافا لأسلافه الذين نزحوا نحو المدينة خوفا من المصاعب ، يستقر في هذه القرية ورغم أن هذه الرواية كتبت بشكل جيد وتطرح مثل رواية "ريح الجنوب" مشاكل اجتماعية حادة إلا أنها لم تلق نفس النجاح الذي عرفته الرواية الأولى ، ولعل تفسير ذلك يعود إلى صدور مؤلفات غير قليلة مخصصة لمشاكل القرية صادفت نشر هذه الرواية ومع ذلك فان نهاية الأمس حاز بها ابن هدوقة لقب الكاتب القروي .

وشخوص هذه الرواية يقدمها ابن هدوقة في صورة تجمع بين السلبية والايجابية ومن هنا وضع الجزائر ضحية الفعل الاستعماري الذي حاول أن يستلب كل معاني الإنسانية من الفرد الجزائري ، وهي رمز بعد ذلك إلى بشاعة الاستعمار وهمجيته وإدانة لوجوده ، والمزاوجة في الرواية بين ميراث الشهداء وكيف اقتنصه الخونة من الحركة" تزوج الحركي بزوجة البشير المجاهد "واستطاع الروائي أن يمزج بين رقية والجزائر ومن خلال ذلك انتصر للحس الوطني بكشفه عن الموقف العدائي لأبناء القرية من الحركي ومن أسرته برجمه حتى الموت ، ولكنهم فرضوا الحصار والعزلة على الأسرة بما فيها رقية وفي التقاء رقية بالبشير المجاهد هو التقاء بطموح الثوار ومآل الوضع في الجزائر فالرابط بينهما هو الابنة المتوفاة ، وهنا رمز الموت الحرية التي نوضل من اجلها وقد يكون الكاتب قد قصد ذلك .

ثم رواية "بان الصبح" المنشورة سنة 1980م أدهشت القراء بتناولها لألف مشكلة ومشكلة لعاصمة البلاد وأحداثها تجري في العاصمة 1976م أثناء النقاشات الحادة حول وثيقة مشروع الميثاق الوطني كوثيقة هامة للثورة الجزائرية التي حددت طريق التطور اللاراسمالي للبلاد ، وأرست أساس دستور الجمهورية الجزائرية ، ويتمحور هذا العمل الفني حول أسرة علاوة الكبيرة التي يحمل أفرادها قناعات سياسية مختلفة من محافظة

متطرفة إلى ديمقراطية ثورية ومن خلال بنية هذه الأسرة الجزئية عكس ابن هدوقة البنيـة الكلية للمجتمع الجزائري .

رب هذه الأسرة الشيخ علاوة موظف سام في إحدى الوزارات متعصب ديني يـرفض الميثاق الوطني لأنه لا يتماشى وتعاليم الدين الإسلامي ولا مع عادات وتقاليـد المجتمـع الجزائري من وجهة نظره . وكان يسمى الاجتماعات المخصصة لمناقشة الميثاق "اجتماع أعداء الله" فهو مغرور بنفسه للغاية ويطمح دوما إلى أن يبدو عكس ما هو عليه في الواقع وهو "برجوازي صغير وسط النبلاء" على الطريقة الجزائرية ، ويـدعوه أولاده بسـخرية جنرالا أما زوجته كلثوم فهي ند له وامرأة محدودة الأفق للغاية . ويعـيش مـع عـلاوة أولاده الراشدون ، عمر وهو أكبرهم متزوج ومدير مؤسسة كبرى تابعة للدولـة حـديث النعمة ومستهتر ، جمع أموالا طائلة عن طريق المضاربة ويدوس بوقاحة حقوق العمال ، وهو محبوب الشيخ علاوة ويشاطره أداءه .

والابن الوسط مراد وهو طبيب جراح درس في فرنسا يقف بآرائه موقفا وسـطا بـين أبيه وأخيه الأكبر عمر من جهة وبين بقية أفراد الأسرة من جهة أخرى .

أما الابن الأصغر رضا فهو طالب متحمس لأفكار الثورة الاجتماعية ، وأفكاره متعارضـة تماما مع أفكار أبيه وتشاطره قناعته أخته دليلة الطالبة في الحقوق ، أن دليلة هـي المـع شخصية في الرواية ذات طبع بارز وناضج إنها فتاة "محشوة بأفكار ناسفة"تمارس رياضة الكراتي وتمتاز عن بقية أبطال الرواية بعدم امتثاليتها المحاربة ، وتعيش في نفس البيـت ابنة أخيه نعيمة التي استشهد أبوها أثناء حرب التحرير وقد قدمت إلى العاصمة للدراسـة في الجامعة وهي فتاة لطيفة وساذجة نوعا ما ، يبدو لها كل شيء فـي العاصـمة جديـدا ومدهشا لكن عيونها انفتحت على أشياء كثيرة بفضل صداقتها برضـا ومشـاركتها فـي اجتماعات مناقشة الميثاق الوطني ومن بين الشخصيات الأخرى في الرواية نتذكر صديقة دليلة ، ابنة العامل نصيرة التي تكنى بسوناكوم "وهي شركة وطنية لإنتـاج الجـرارات ، ونصيرة نموذج جديد للفتاة الجزائرية المتحررة .

والى جانب الأبطال الرئيسين نجد في الرواية شخوصا ثانوية كثيـرة تمثـل مختلـف شرائح المجتمع الجزائري ابتدءا من ارسطوقراطية العاصمة وانتهاء بالعمال البسطاء .

لقد كتبت هذه الرواية لتصف التناقضات بين أفراد العائلة والتي كانت مخفية إلى حين في تمرد معلن للأبناء الصغار ضد الأب المستبد الغبي الذي يدعمه الابن الأكبر عمـر .

وحين يصور الروائي حياة أسرة علاوة يلج بالقارىء إلى صميم حياة المجتمع الجزائـري المعاصر الذي يمر بمرحلة تطور انتقالية ومضطربة حسب أراء الجزائـريين أنفسـهم ، ويبرز الكفاح الاجتماعي الحاد الذي قسم هذا المجتمع إلى شقين متعارضين أنصار القـديم المتمسكين بالتعاليم الدينية وإتباع الجديد المكافحين من اجل جزائر علمانيـة ديمقراطيـة حقة . ومن خلال هذه الرواية استطاع ابن هدوقة أن يخلق عمل أدبي وطني عميـق فـي واقعيته يعكس الحياة الحديثة للمجتمع الجزائري، ويمكن أن نرى إن شخوص هذه الرواية جاءت لترسم في المدينة لتكون معادلا موضوعيا ل"ريح الجنوب ونهايـة الأمـس"وفـي الوقت نفسه امتدادا لها فالجزائر ممثلة برمز دليلة أكثر نضوجا وتطورا ووعيا من نفيسـة المستغلة في إطار علاقات ريفية تنظر إلى المرأة نظرة خاصـة. و الجزائـر فـي هـذه المرحلة تمارس فيها أشكالا من الاستغلال بطرق مختلفة شكلا ومضمونا.

وفي سنة1983م نشر رواية "الجازية والدراويش"،وهي عمل فني غير عادي يشـمل سمات الرواية السياسية المعاصرة والأسطورة الشعبية القديمـة ، بـين السـرد الـواقعي والقصيدة النثرية الرمزية . بين الواقع والأسطورة .وهي جديدة شكلا ومضمونا .وتجـري أحداث الرواية في قرية نائية "ضائعة في الجبال والأزمنة"والبطلة الرئيسية للروايـة هـي الفتاة الخارقة للعادة الجازية بنت المجاهد البطل في الحرب التحريرية الذي قتل من ألف بندقية ودفن في مناقير الطيور ، ويبدو أن اسم الجازية مستوحى من الأسـاطير الملحميـة عن جازية قبيلة بني هلال ، وهي حسناء فاتنة دفن شعرها كما تقول الخرافة في
أماكن خفية بالجبال ،،ترتبط طموحات وأمال كل أبطال الرواية تقريبا بطريقة أو بـأخرى بالجازية الحسناء ، فكلهم يخطبون ودها وعطفها ومن بين الساعين لكسب الجازية شـاب متعلم وابن فلاح محلي اسمه الطيب والعيد العائد من الغربة إلى قريته الأصـلية وشـيخ القرية ذو الماضي الغامض الذي كان يحلم بتزويج نجله الذي يدرس في أمريكا بالجازيـة والطالب الأحمر الفاتن الشجاع والحالم الذي قدم القرية متطوعا لمساعدة الفلاحين ورعـاة القرية البسطاء ، ولكنهم يخفقون، فالطالب الأحمر يضيع في الجبـال بطريقـة غامضـة ومحيرة ويقع شيخ القرية في هاوية ، ويكاد العيد يهلك ويدخل الطيب السجن بتهمة ملفقـة وبعد هذه الهزات تعود الحياة في القرية إلى مجراها الطبيعي وتجري كمـا جـرت منـذ قرون تحيط بها هالة من قداسة التقاليد والعادات القديمة .

ويتصور النقاد القراء أن الجازية في الرواية ترمز إلى الوطن إلى الجزائر ويمثل العمل الفني هنا عن كون الجزائريين يحبون بلادهم بطرق مختلفة بصرف النظر عن أهداف كل واحد منهم، وهناك فكرة هامة في الرواية وهي انه لا ينبغي استئصال الشعب عن جـذوره وعن قيمه المتوارثة عبر الأجيال و لا يجب أن نفرض عليه خيارا ما بطريقة اصـطناعية ومن لا يأخذ هذا بعين الاعتبار يصاب بالفشل مهما كان نبل الأهداف أو خبثها.

فامتزاج الجازية بالجزائر جعلها مطمعا لكل الدراويش الطامحين في الظفر بهـا كـل بحسب توجهه الفكري ونظرته إلى الحياة ، ولكن الجزائر حافظت إلى اسـتقلالها وبنـاء شخصيتها بعيدا عن تلك المغريات واللحون واختارت أن تبقى سامقة الهامة عالية الـرأس وارتبطت بالصفصاف رمز السمو والعلو والارتقاء ورمز التماسـك والتجـذر والثبـات واليقين .

أما رواية "غدا يوم جديدة "فقد اعتمد فيها الروائي على تقنية الاسـترداد فلـم تعتمـد اللحظة الدرامية المعينة ، فالأحداث فيها أنية قريبة وحاضرة فاعلة تحيلنا إلـى الماضـي وشخوص الرواية تفكر بأصوات عالية ومرتفعة ورمز المرأة فيه كرمز للوطن ترتد إلـى ماضي بآلية السرد "ابني الشهيد أبوه قدور هو الوحيد الذي اعرف أبـاه" ممـا يعنـي أن الصراعات التي عرفتها الجزائر في هذه المرحلة توزعت بين تيارات مختلفة إيديولوجيا . ومن هنا فالجزائر الوطن تحفظ للشهداء و المجاهدين حق السلطة بمعنى سلطة الشـرعية التاريخية ولا شرعية لغيرها . إن الجزائر ممثلة في رمز هذه المرأة الأنثى التـي تحمـل مواصفات الإبهار والدهشة والإعجاب وتصبح المرأة النموذج الذي بحث عنه الروائي في أعماله السابقة

إنها الجزائر الوطن في مسيرتها التاريخية فهذه المرأة لا تريد ولا ترغب في العودة إلـى الريف إلى الدشرة "وقد تزوجت بهذا الرجل الذي يعمل بالمدينة إنها لن تتـزوج الرجـل تزوجت المدينة "(3).

وعلى هذا ما زال الاعتقاد في المدينة وما زالت الجزائر ترى في المدينـة خلاصـها وجلاء همومها والواقع أن القضية ليست قضية مكان بل إنهـا قضـية علاقـات وأنمـاط معيشية فقد نعيش في المدينة بعقلية البدوي وقد نريف المدن. والمكان له دور أساسي فـي الرواية "لو سألتني أين تحيا؟ أقول في المدينة والرأس ما زال قرويا والقرية اندثرت ولـو

سألتني وما جنت به عليك المدينة؟ أقول لها :اعتدت على شرف طفولتي كما اعتدت علـــى شرف شبابك القروي"(4).

إذن القضية قضية نمط تفكير ونظام معيشي ولهذا سعى إلى رســم حــدود الشخصــية الرئيسية في نصه بتقنية فنية تتيح للشخصية أن تعبر عن نفسها وتكشف عــن جوهرهــا بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة وقد يعمد إلى توضيح بعض تصرفاتها عن طريق أحاديــث الشخصيات الأخرى عنها وتعليقاتها على أعمالها.

الهوامش:

1- ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي " النص والسياق" المركز الثقافي العربــي، الــدار البيضاء، المغرب، ط1/ ص: 140.

2- السابق، ص: 32.

3- ابن هدوقة: غدا يوم جديد، ص: 24.

4- السابق، ص: 165.